فَكَأَنَّ صِحَّةَ نَسْجِهَا مِنْ لَفْظِهِ
وَكَأَنَّ حُسْنَ نَقَائِهَا مِنْ عِرْضِهِ(١)
وَإِذَا وَكَلْتَ إِلَى كَرِيمٍ رَأْيَهُ
فِي الْجُودِ بَانَ مَذِيقُهُ مِنْ مَحْضِهِ(٢)

إذا اعتل سيف الدولة

قال لما مرض سيف الدولة فيه يعوده من مرض:

[الطويل]

إِذَا اعْتَلَّ سَيْفُ الدَّوْلَةِ اعْتَلَّتِ ٱلأَرْضُ
وَمَنْ فَوْقَهَا وَٱلْبَأْسُ وَٱلْكَرَمُ المَحْضُ(٣)
وَكَيْفَ انْتِفَاعِي بِالرُّقَادِ وَإِنَّمَا
بَعِلَّتِهِ يَعْتَلُّ فِي الأَعْيُنِ الْغُمْضُ(٤)

= خالق السماء سبحانه بالأرض بمن فيها وما فيها. والفعل هذا عظيم بحدّ ذاته، يستحقّ الإشادة به، ورغم ما مدح الشاعر ممدوحه فإنه لم يُوفّه حقه من الإشادة والمدح.

(١) يصف الشاعر الخلعة؛ إنها بديعة النسج، جيّدة الصنع، تليق بالملوك وهي في الأصل حِيكت لتكون لباس الأمير لنقائها، فكلّ ما يميّزها يُوحي بروعة لفظه البديع النظم المنظم بسلك الحكمة وبطهارة ونقاء عرض الأمير من كلّ نقص وخلوّه من كلّ ما يشين.

(٢) وكلت: فوضت. المذيق: الممزوج. المحض: الخالص. يصرّح الشاعر بحقيقة، مفادها أن المرء إذا ترك الكريم على سجيّته المتأصلة فيه في الكرم، كان طليق اليد يعطي عطاءً أريحياً لا تشوبه شائبة الحرص والبخل، بينما الأمر خلاف ذلك مع من اتّصف بالبخل، فإنه متردّد خائف يفتقد إلى أريحية العطاء، منكمش اليد حتى في حال عطائه.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٧٥. البأس: القوّة. المحض: الخالص. ثمّة تلازم بين سيف الدولة والأرض، فإذا مرض الأمير مرضت لأجله الأرض وما فيها ومن فيها وعليها، وحلّ فيها الضعف لأنها تستمدّ قوتها وشدّة بأسها منه، حتى الكرم ينزعج لمرض الممدوح فيمسك عن العطاء.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. يربط الشاعر بين مرض الأمير وعدم شعوره بالراحة، فهو لا يستطيع النوم وقد فارقت عينيه الإغماضة، فكأن العلّة انعكست على عينيه لذا فهو لا يعرف للنوم طعماً.

شَـفَـاكَ الَّـذِي يَـشْـفِـي بِـجُـودِكَ خَـلْـقَـهُ
فَـإِنَّـكَ بَـحْـرٌ كُـلُّ بَـحْـرٍ لَـهُ بَـعْـضُ[١]

(١) يدعو الشاعر للأمير بالشفاء العاجل مِنّة من الكريم سبحانه وتعالى الذي يُفيض خيره على سائر مخلوقاته، وبشفاء الأمير يعمّ الكريم خلقه، إنه واسطة خير، وهو بحر عظيم يضيع فيه كلّ البحار مهما عظمت، فخيره عميم عظيم.